الباب الرابع والعشرون

فى القول فى السماع ترفعًا واستغناءً

اعلم أن الوجد يُشعر بسابقةِ فَقْدٍ، فمن لمَ يفْقِد لم يجد؛ وإنما كان الفقدُ لمزاحمة وجودِ العبد بوجود صفاته وبقاياه؛ فلو تمحَّض عبدٌ لتمحَّض حُرًا[١]، ومن تَمحَّضَ حُرًا أفْلت من شَرَك[٢] الوجد؛ فشَرك الوجد يصطاد البقايا، ووجودُ البقايا لتخلّف شيء من العطايا.

قال الحصريُّ، رحمه الله تعالى: «ما أدونَ[٣] حال من يحتاج إلى مُزْعِجٍ يُزْعجه»؛ فالوجد بالسماع فى حقّ المُحقِّ كالوجد بالسماع فى حقّ المبطل: من حيثُ النظرُ إلى انزعاجه، وتأثّر الباطن به، وظهورُ أثره على الظاهر، وتغييرُه للعبد من حال إلى حال.

وإنما يختلف الحال بين المحق والمبطل: إن المبطل يجدُ لوجود هوى النفس، والمحقُّ يجدُ، لوجود إرادة القلب؛ ولهذا قيل: السماعُ لا يُحدِث فى القلب شيئًا، إنما يُحرّك ما فى القلب، فمن يتعلّق[٤] باطنه بغير الله يُحركه السماع فَيجدُ بالهوى، ومن يتعلّق باطنه بمحبة الله يجد بالإرادة إرادة القلب؛ فالمبطل محجوب بحجاب النفس، والمحقُّ محجوب بحجاب القلب وحجابُ النفس حجاب أرْضىّ ظلمانىّ، وحجابُ القلب حجاب سماوىّ نورانىٌّ، ومن لم يَفْقد بدوام التحقُّق بالشهود ولا يتعثَّر بأذيال الوجود فلا يسمع ولا يجد، ومن هذه المطالعة قال بعضهم: «أنا رَدْمٌ[٥] كلّه لا ينفذ فىَّ قول».

ومرّ مِمْشاد الدينوريُّ[٦]، رحمه الله، بقوم فيهم قوّال، فلما رأوه أمسكوا فقال: ارجعوا إلى ما كنتم فيه، فوالله لو جُمِعتْ ملاهى الدنيا فى أذنى ما شَغَل هَمّى ولا شفى بعضّ ما بى».

فالوجدُ صراخُ الروُّح المبتلَى بالنفس تارةً فى حقّ المبطل، وبالقلب تارةً فى حقّ المحق.

فمثارُ الوجدِ الرّوحُ الروحانى فى حقّ المحقّ والمبطل.

---

(١) وفى نسخة: فلو تمحّض عبدًا تمحّض حرًا.

(٢) الشَرَك (بفتح الراء) = الحبالة والفخ

(٣) من الدناءة

(٤) وفى نسخة: فمن مُتَعلّق

(٥) الردم = الصلب من الجدار والتعثُّر = السقوط والزلل.

(٦) من كبار رجال التصوف كان عالمًا عابدًا زاهدًا صحب ابن الجلاء، ومات سنة ٢٩٩ هـ، ومن أقواله: إنما ورث الحكماء الحكمة بالصمت والتفكر.

ويكون الوجدُ تارةً من فهم المعانى يظهر، وتارةً من مجرد النغمات والألحان، فما كان من قبيل المعانى تُشارك النفسُ الروحَ فى السماع فى حقّ المبطل ويُشارك القلبُ الروح فى حقّ المحقّ.

وما كان من قبيل مجرّد النغمات تتجرّدُ الروحُ للسماع، ولكن فى حقّ المبطل نَسْتَرِقُ النفسُ السمعَ، وفى حق المحقّ يسترقُ القلبُ السمعَ.

ووجه استلذاذِ الروح النغمات: أنَّ العالَم الروحانىَّ مجمعُ الحسن والجمال، ووجودُ التناسُب فى الأكوان مستحسنٌ قولاً وفعلاً، ووجود التناسب فى الهياكل والصور ميراث الروحانية، فمتى سمع الروحُ النغماتِ اللذيذةَ والألحانَ المتناسبةَ تأثّر به؛ لوجود الجنسية، ثم يتقيدّ ذلك بالشرع لمصالح عالَم الحكمة، ورعايةُ الحدودِ للعبد عَيْنُ المصلحة عاجلاً وآجلاً.

ووجهٌ آخر: إنما يستلذُّ الروحُ النغماتِ؛ لأنَّ النغماتِ بها نُطْقُ النفس مع الروح بالإيماء الخفىّ إشارةً ورمزًا بين المتعاشقين، وبين النفوس والأرواح تعاشقُ أصلى ينزع ذلك إلى أنوثة النفس وذكورة الروح، والميلُ والتعاشق بين الذكر والأنثى بالطبيعة واقعٌ، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[1] وفى قوله تعالى: ﴿منها﴾ إشعارٌ بتلازم وتلاصُق موجبٍ للائتلاف والتعاشق، فالنغماتُ يستلذها الروحُ؛ لأنها مناغاة[2] بين المتعاشقين وكما أنّ فى عالم الحكمة كُوِّنت حوّاء من آدم، ففى عالم القُدرة كُوِّنت النفس من الروح الروحانى، فهذا التألفُّ من هذا الأصل؛ وذلك أن النفس روح حيوانى تجنست بالقرب من الروح الروحانى، وتجنُّسها بأن امتازت من أرواح جنس الحيوان بشرف القرب من الروح الروحانىّ فصارت نفسًا.

فإذن تكوّن النفس من الروح الروحانىّ فى عالم القدرة كتكوّن حوّاء من آدم فى عالم الحكمة، فهذا التآلف والتعاشق ونسبةُ الأنوثة والذكورة من ها هنا ظهر، وبهذا الطريق استطابت الروحُ النغماتِ؛ لأنها مراسلات بين المتعاشقين ومكالمة بينهما، وقد قال القائل:

تَكَلَّم منا فى الوجوه عُيونُنا ... فنحن سكوتٌ والهوى يتكلَّم[3]

---

(١) آية رقم ١٨٩ من سورة الأعراف.

(٢) المراد بالمناغاة هنا المكالمة والمناجاة وفى اللغة معناها ملاعبة الحبيب.

(٣) وقبل ذلك البيت: تُشير فأدرى ما تقول بطرفها ... وأطرق طَرْفى عند ذاك فَتَعْلَمُ

فإذا استلذّ الروحُ النغمةَ وَجَدت النفسُ المعلولةُ بالهوى وتحرّكت بما فيها من الصفات الحدوث العارض، ووجَد القلبُ المعلول بالإرادة، وتحرّك بما فيه لوجد العارض فى الروح:

شربنا وأهرقنا على الأرض جرعة وللأرض من كأس الكرام نصيب

فنفس المبطل أرضٌ لسماء قلبه، وقلبُ المحقِّ أرضٌ لسماء روحه، فالبالغُ مَبلغ الرجال، والمتجوهر المتجرّدُ من أعراض الأحوال خَلع فَعْلَىْ النفس والقلب بالوادى المقدّس، وفى مقعدِ صدق عند مليك مقتدر استقرّ وعرّس[1]، وأحرق بنور العِيان أجرام الألحان، ولم تُصغِ روحُهُ إلى مناغاة عاشقِه؛ لشغله بمطالعة آثار محبوبه، والهائم المشتاق لا يسعه كَشفَ ظُلامة[2] العشاق، ومَنْ هذا حالُه لا يُحرّكه السماع رأسًا، وإذا كانت الألحان لا تَلْحَق هذه الروح مع لطافة مناجاتِها، وخفىّ لُطفى مناغاتها كيف يَلْحقه السماعُ بطريق فهم المعانى وهو أكثف.

ومن يَضعف عن حمل لطيف الإشارات كيف يتحمّل ثقل أعباء العبارات؟!

وأقرب من هذا عبارةٌ تَقْرُبُ إلى الأفهام: الوجدُ واردٌ يرد من الحق سبحانه وتعالى، ومن يُريد اللهَ لا يقنع بما هو من عند الله، ومن صار فى محلّ القرب متحققًا به لا يُلهيه ولا يُحركه ما ورد من عند الله؛ فالوارد من عند الله مُشعرٌ ببُعْد، والقريبُ واجدٌ، فما يصنع بالوارد، والوجدُ نارٌ، والقلبُ الواجد رَبَّه نُورٌ، والنور ألطف من النار، والكثيفُ غير مسيطر[3] على اللطيف فما دام الرجل البالغُ مستمرًا على جادة استقامته غيرَ منحرفٍ عن وجه[4] معهوده بنوازع وجوده لا يدركه الوجدُ بالسماع، فإن دخل عليه فتورٌ، أو عاقه قصور بدخول الابتلاء عليه من المبتلى المحسِن[5] يتألف المحن من تفاريق صُور الابتلاء: أى يدخل عليه وجودٌ يدركه الواجد لعود عند الابتلاء إلى حجاب القلب، فمن هو مع الحق إذا ذَلّ وقع على القلب، ومن هو مع القلب إذا زل وقع على نفس.

سمعت بعض مشايخنا يحكى عن بعضهم أنه وجد من السماع، فقيل له: أين حالك من هذا؟ فقال: دخل علىّ داخلٌ أوردنى هذا المورد.

---

(١) التعريس: النزول فى السفر آخر الليل.

(٢) الظلامة والظليمة والمظلمة: ما تطلبه عند الظالم، وهو اسم ما أخذ منك.

(٣) أى غير غالب.

(٤) وفى نسخة: عن وجهة معبوده.

(٥) وفى نسخة يتولد المحن.

قال بعض أصحاب سهل: صحبت سهلاً سنين ما رأيته تغيرَ عند شيء كان يسمعه من الذكر والقرآن، فلما كان فى آخر عمره قرىء عنده ﴿ فالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ﴾[1] فارتعد، وكاد يسقط، فسألته عن ذلك؟ قال: نعم لحقنى ضعف، وسمع مرّة ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾[2] فاضطرب، فسأله ابن سالم، وكان صاحبهُ قال: قد ضَعُفْت؛ فقيل له: إن كان هذا من الضعف فما القوة؟ قال: القوة أن [الكامل][3] لايرِد عليه واردٌ إلاّ يْبتَلعه بقوّة حاله فلا يغيرّه الوارد.

ومن هذا من القبيل قولُ أبى بكر، رضى الله تعالى عنه: هكذا كنا حتى قست القلوب، لّما رأى الباكى يبكى عند قراءة القرآن.

وقوله: «قست» أى: تصلبت، وأدمنت سماع القرآن وألِفَتْ أنواره فما استغربته حتى تتغيّر. والواجدُ[4]؛ المستغربُ لهذا قال بعضهم: «حالى قبل الصلاة كحالى فى الصلاة» إشارةٌ منه إلى استمرار حال الشهود، فهكذا فى السماع كقبل السماع.

وقد قال الجنيد: «لا يَضُرُّ نُقْصان الوجد مع فضل العلم، وفضلُ العلم أتمٌ من فضل الوجد».

وبلغنا عن الشيخ حماد، رحمه الله، كان يقول: البكاء من بقية الوجود[5]. وكلّ هذا يقرّب البعضَ من البعض فى المعنى لمن عَرف الإشارة فيه، وفَهِم، وهو عزيزُ الفهم، عزيز الوجود.

واعلم أن للباكين عند السماع مواجيدَ مختلفةً، فمنهم من يبكى خوفًا، وفيهم من يبكى شوقًا، ومنهم من يبكى فرحًا، كما قال القائل:

طَفَح السرورُ عَلّى حتى أنّنى ... مِن فَرْط ما قد سَرّنى أبكانى

قال الشيخ أبو بكر الكتّانى[6]، رحمه الله تعالى، : «سماع العوامّ على متابعة الطبع، وسماعُ المريدين رغبةٌ ورهبةٌ، وسماع الأولياء رؤية الآلاء والنعماء، وسماع العارفين

---

(١) آية رقم ١٥ من سورة الحديد.

(٢) آية رقم ٢٦ من سورة الفرقان.

(٣) كلمة الكامل التى بين القوسين زائدة فى بعض النسخ.

(٤) وفى نسخة كالمستغرب.

(٥) وفى نسخة الوجد.

(٦) هو: محمد بن على بن جعفر وكنيته «أبو بكر» كان أحد الأئمة فى التصوف، بغدادى الأصل، صحب الجنيد والخراز والنورى وجاور بمكة إلى أن مات سنة ٣٢٢هـ. وحكى عن أبى محمد المرتعش أنه كان يقول (الكتانى سراج الحرم).

obeikandi.com

على المشاهدة،وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعِيان. ولكل واحد من هؤلاء مصدر ومقام».

وقال أيضًا: الموارد[١]تَرِد فتصادف شكلاً أو موافقة، فأىُّ واردٍ شكلا مازجه؟ وأىّ وارد صادف موافقًا ساكنة». وهذه كلها مواجيد أهل السماع. وماذكرناه حالُ من ارتفع عن السماع.

وهذا الاختلاف ينزل على اختلاف أقسام البكاء التى ذكرناها، من: الخوف، والشوق، والفرح.

وأعلاها بكاءُ الفرح بمثابة قادم يقدُم على أهله بعد طول غربته فعند رؤية الأهل يبكى من قوّة الفرح وكثرته.

وفى البكاء رتبةٌ أخرى، أعزّ من هذه، يَعزُّ ذكرها ويكبرُ نَشْرها؛ لقصور الأفهام عن إدراكها، فربّما يُقَابَل ذكرها بالإنكار ويخفى[٢] بالاستكبار، ولكن يعرفها من وجدها قَدَمًا ووصولاً، أو فهمها نظرًا كثيرًا ومَثولاً[٣]. وهو بكاء الوجدان غيرُ بكاء الفرح، وحدوثُ ذلك فى بعض مواطن حقّ اليقين، ومن حقّ اليقين فى الدنيا إلمامات يسيرة، فيوجد البكاء فى بعض مواطنه؛ لوجود تغاير وتباين بين المحدَث والقديم، فيكون البكاء رشحًا هو وصف الحدثان لوهج[٤] سطوة عظمة الرحمن. ويقرب من ذلك مثلاً فى الشاهد قَطْرُ الغمام بتلاقى مختلف الأجرام، وهذا، وإن عَزَّ، مُشعرٌ تقدح ببقيةٍ العبد فى صِرفِ الغناء، نعم، قد يتحقق العيد فى الغناء متجرّدًا عن الآثار منغمسًا فى الأنوار، ثم يُرقّى منه إلى مقام البقاء، ويُرَدُّ، إليه الوجودُ مُطَهرًا، فتعود إليه أقسامُ البكاء خوفًا وشوقًا وفرحًا وَوجْدانًا بمشاكلة صورها ومباينة حقيقتها بفرق لطيف يدركه أربابه، وعند ذلك يعود عليه من السماع أيضًا قِسمٌ، وذلك القسم مقدورٌ له، مقهورٌ معه، يأخذه إذا أراد ويردّه إذا أراد.

يكون هذا السماع من المتمكن بنفس اطمأنت، واستنارت، وباينت طبيعتها، واكتسبت طمأنينتها، وأكسبها الروحُ معنىً منه؛ فيكون سماعُه نوعَ تمتع للنفس كتمتعها بمباحات اللذات والشهوات، لا أن يأخذ السماعُ منه أو يزيد به أو يظهر عليه منه أثرٌ، فتكون النفس فى ذلك بمثابة الطفل فى حجر الوالد يُفَرِّحه فى بعض أوقاته ببعض مآربه.

---

(١) وفى نسخة: الوارد يرد فيصادق.

(٢) وفى نسخة: ويُجفى.

(٣) مَثَل بين يديه مثولاً أى انتصف قائمًا.

(٤) الوهج: الحرارة.

ومن هذا القبيل ما نقل: أن أبا محمد الراشنى كان يُشْغل أصحابه بالسماع وينعزل عنهم ناحيةً يصلّى فيها؛ فقد تَطرْق النغماتُ مثلَ هذا المصلى فتتدلَى إليها النفس متنعّمة بذلك؛ فيزداد موارد الروح من الأُنس صفاءً عند ذلك لبعد النفس عن الروح فى تمتعها؛ فإنها مع طمأنينتها بوصفٍ من الأجنبية بوضْعِها وجلبّتها، وفى بُعدها توفير أقسام الروح من الفتوح، ويكون طُروقُ الألحان سَمْتَه فى الصلاة غيرَ حائل بينه وبين حقيقة المناجاة، وفهمِ تنزيل الكلمات وتصل الأقسام إلى محالّها غيرّ مُزَاحِمةٍ، ولا مُزاحَمة، وذلك كلّه لسعةِ شرح الصدر بالإيمان والله المحسن المنّان؛ ولهذا قيل: السماع لقوم كالدواء، ولقوم كالغذاء، ولقوم كالمروحة.

ومن عَوْد أقسام البكاء ما روى أن رسول الله ﷺ قال لأُبىّ: اقرأ، فقال: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال: أحب أن أسمعه من غيرى فافتتح سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمة بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا﴾[1] فإذا عيناه تَهْمُلان»[2].

وروى أن رسول الله ﷺ استقبل الحجر واستلمه، ثم وضع شفتيه عليه طويلاً يبكى، وقال: يا عمر هاهنا تُسْكَب العبرات[3].

والمتمكّن يعود إليه أقسامُ البكاء، وفى ذلك فضيلةٌ سألها النبى ﷺ فقال: «اللهم ارزقنى عينين هَطّالتين».

ويكون البكاء فى الله، ويكون لله، ويكون بالله – وهو الأتَمُّ – لعوده إليه بوجودِ مستأنف موهوبٍ له من الكريم المنّان فى مقام البقاء.

---

(١) آية رقم ٤١ من سورة النساء.

(٢) الهملان: فيض الدمع والحديث رواه البخارى من حديث عبد الله بن مسعود وكذلك الترمذى.

(٣) رواه الحاكم وقال صحيح وأقره الذهبى.

obeikandi.com